أتتجرّأ على الإيمان بالحبّ؟

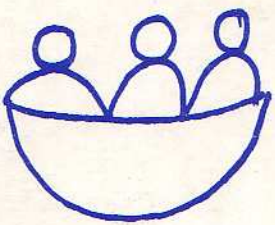

جان ڤانييه

البائس إنسانٌ فاقد الأمل ،
محطّم ،
منهار ،
منبوذ .
المتشرّد ، المتسوّل
غالبًا ما ننظر إليه باحتقار :
« لا ينفع لشيء »
« كسول »
« قذر »
« رائحته كريهة »
« سكران »
أو قد نعطيه بعض الدراهم
محوّلين أنظارنا عنه مُسرعي الخطى .

للبؤس مظاهرُ عديدة :
بؤس المذنب
والمزاجيّ ...
هما أحيانًا عنيفان ، قاسيان ،

يمتلئان بغضاً ،
نخافُ منهما
أو نتجاهلهما .

هؤلاء الشيوخ الخَرِفون والسّريعو الغضب
الذين يعيشون في الشقاء
لا أحدَ منهم يريد الخلاص ...
مهجورون ، وحيدون ،
تعساء .

الكحولي :
« الكريه الرائحة »
هو أيضاً مُشْبَعٌ بالألم .

المتخلّف عقلياً :
« الأبله » ، « المجنون »
نحتجزه :
« إنه غير طبيعي » .
(مَن هو الطبيعي ؟
ومن هو المتكيّف مع ماذا ؟)
أداة هزءٍ هو ،
واحتقار ،
وشفقة ،
لم يُحترم أبداً
كمخلوقٍ بشري !

المنهار ، المريض عقليًّا
حزين في الأعماق
حتى الموت
موت الرّوح
«هل تعلمون أنّه حاول الانتحار ؟»

الأسود ،
المهاجر ،
العاطل عن العمل ...
ليس لهم اسم ...
ولا شهرة
هم أرقام في الملفّات ...
يعيشون في الضواحي
في منازل خَربة ...
مع جميع هؤلاء الأولاد القذرين !

وفي البعيد
في البرازيل وفي آسيا
أولئك العائشون في مدن الأكواخ
في البغاء
في العنف
الأولاد هناك يموتون جوعًا

وهؤلاء الأغربون
وحيدون ، حزاف

لا قوّةَ لديهم
لا رغبةَ
ولا تبرير.
كلّ هذا مغمورٌ
في عالم من الجنس والمخدّرات
والله يعلم ماذا أيضاً.

«الفاسد» مقيّدٌ في الحزن
ومن المستحيل أن يتقدّم
نحو الضوء.
إنّهُ يُقلقه.

يوجد العديد من البؤساء
في العالم
ليس لديهم رجاء
ولا أصدقاء

ومن غير المدهش أن لا يكون لهم
أصدقاء:
الكسيح في سريره
تفوح رائحته الخبيثة.
الأبرص،
المتشرّد،
هما كريهان!
أخاف منهما، أنبذهما...

ومع ذلك ،
أنتَ ،
أيّها البائس ،
أنتَ أخي
أخي في يسوع .

لكن أنا
سأتصرّف وكأنّك غريب
لأنّ الحظّ جانبني
بأن يكون لي منزل سعيد
وتربية جيّدة
وعافية تامّة .
السلام في القلب ...

أنتَ ،
أنتَ لم تكن محظوظاً ،
أنتَ تربّيتَ في الفقر :
والدان مطلّقان ،
أمّ كحوليّة ،
رسوب في المدرسة ،
مرض ،
سوء تغذية ،
مجموعة من المصائب
أتساءل عمّا كانت ردّة فعلي
لو كنتُ مكانك ...

الله يعلم ،
لما كنتُ أفضل !

أنتَ ، أخي ،
غريب في بؤسك
وشقائك المعنوي والجسدي .

أنا ، بثيابي النظيفة ،
وأنفي الحسّاس (أكره الروائح !) ،
وتهذيبي ،
وبيتي جيّد التدفئة ،
وغذاءٍ طيّب ،
وأصدقاء .

أنتَ ، مسجونٌ في بؤسك
لأنّ الحياة ليست أمامك
لا فرحَ تأمله ،
لا أوردَ أحبّاء ،
لا تقدير ،
لا معنى لكرامتكَ الذاتيّة ،
ولا احترام الآخرين ،
لا حُبّ ، لا أصدقاء .

لكنّني أنا أيضاً مسجون
لأنّني أقفلتُ بابَ قلبي .

أوجدتُ عالماً مريحاً لنفسي ،
عالمَ طمأنينة .
نورُ الحقيقةِ لا يخترقُ جسدي
حقيقةِ البؤسِ الإنساني
المنتَشر والعميق :
عيناي لا تراه ،
وأذناي لا تسمعه .

أبقى
في عالمي ،
عالم السهرات ،
متنزهاً في العائليّة ،
مستمعاً إلى الموسيقى الجيّدة ،
ملتهماً الطعام الطيّب ،
أشاهدُ الأخبار
عن حرب فيتنام .

ومن المؤكّد ،
لديّ مهنتي !
« ألا تعلمون
أنّني مواطنٌ محترم ؟ » .

قلبي مُغلقٌ
وأنا مسرورٌ من نفسي ،
راضٍ ...

أخافُ النظر إلى الحقيقةِ
حقيقةِ البائس،
حقيقةِ العالم كما هو.

إنّي مسجونٌ في مدينةٍ
مدينةٍ مصنوعةٍ من حجارةِ
عدم اكتراثي
أو احتقاري إيّاكم.

البائسُ مسجونٌ ...
وفي الغرفة المجاورة
يجلس الميسورون
على وسائد من المخمل.

سجنان
يفصل بينهما وادٍ.
وتستمرّ الحياة على هذا المنوال ...
وجدران السجنين تزدادُ علوًّا ومتانة.

مَن يكون همزة الوصل؟

أنتَ، أخي،
لن تستطيع،
لأنّه ليس في وسعكَ الصّراخ
خوفًا من أن تنسحق

مرّةً أخرى
فأنتَ طالما كنتَ محروقاً
من الآخرين ..

أنا ،
أخافُ أن أتخلّى عن
راحة طمأنينتي .

إذاً ،
هذان العالَمان
لن يلتقيا أبداً
يفصلهما وادٍ
يُدعى الخوف .

مَن يُمكِنهُ كسر الخوف ؟

ليست الشهوات
هي التي سوف تؤاسي
مَن لا أملَ لديهم :
المال للزانية
أو للمذنب
ليس هو الحلّ .

إنهم بحاجةٍ
الى الحياة ،

إلى رجاء ،
إلى تبرير ،
إلى رغبة ...

إنهم يعرفون جيداً
حقيقة بؤسهم .
هم مقتنعون بعدم جدواهم .
ليست هذه المعرفة التي تنقصهم
لكن بالأحرى
الأمل
والقدرة
لاجتياز هذا العالم
من البؤس .

لكن أين نجد
هذه القدرة المتفجرة من الأمل ؟
مَن ينتصر على الخوف ؟

يحتاج البائس الى حضورٍ ،
حضورٍ مؤانسٍ
حضورٍ يجلب معه الأمل والحياة .
إلى صديق يقول :
« إنني أؤمن بك »
« أنتَ هامّ ...
هامٌّ لأصدقائك ،

للمجتمع ،
للكون ،
ليسوع
(ألا تعرف أنّه قد مات من أجلك ؟) »

« نعم ، أنتَ عزيزٌ عليّ ،
على العالم ،
وعلى الله .
ينبغي أن تعيش !
إذا لم تعش ،
سوف يكونُ حزنٌ :
سوف تكونُ هنالك
نبتةٌ إنسانيّة لم تُزهر
(هذا مخيفٌ أن لا تتفتّح نبتةٌ أبدًا !) »

« يجب أن تقوم في اليوم الثالث
(متى يكون ذلك ؟)
وإلّا سوف أبكي ،
الإنسانيّة سوف تبكي .
لكنني على ثقة :
إنكَ سوف تقوم ! »

لكن ، أين نجد هذا الحضور ؟
مَن يستطيع أن يكونَ حاضرًا حقًّا
في البؤس ؟

يسوع
وحده يمكنه فعلاً
أن يكون حاضراً .
هو وحده
يستطيع أن يكون الجسر
فوق الوادي الذي يفصلنا
لأنّ اسم يسوع ،
اسمه السرّيّ ،
هو
حُبّ
(هل تعرف هذا ؟)

والحبّ وحده يُمكنه أن يوحّد
أن يشفي
أن يهب الحياة ...

هذا الحبّ الحيي الذي يسيل
من قلبه المقدّس .

يسوع يهب الحياة
بعينيه (نظرَ وأحبّ) ،
بيديه (لمسَ عيني الأعمى) ،
بجدة ،
بحضوره ،
حضوره الحقيقي !

لكن يا يسوع ،
أنتَ بحاجةٍ إلى قلبي
المسكين بهذا القدر
كي تهب حبّكَ
للذين سُجنوا في البؤس

قال القديس بولس :
« لستُ أنا الذي أحيا ،
لكنّ المسيح هو الذي يحيا فيَّ »
وقلتَ أنت
إنّك تسكن في كلّ مَن
أكل جسدك وشرب دمك ...

وأنا ،
أكلتُ جسدكَ يوماً بعد يوم
لكن ربّما لم أؤمن كفايةً
أنكَ تحيا فيَّ
وأنّ قلبك في قلبي !

يا قلب يسوع المقدّس ،
أنتَ وحدك مصدر الوحدة
أنتَ وحدك
تستطيع خلق الوحدة
والاتحاد والانسجام
بين هذين العالمين المنقسمين .

أنتَ وحدكَ
تستطيع وهب الحياة
للذين يعيشون في البؤس .
أنتَ وحدكَ
تستطيع جلب السلام
إلى هيمث القلق والحرب
أنتَ وحدكَ
تستطيع جلب الخلاص
إلى هيمث اليأس والموت .

إنّني أُقدّم لكَ قلبي المسكين ،
الإنساني ، الضعيف ،
المملوء ذنوبًا ،
وأخطاءً ، وغرورًا ،
هو مريض ،
مريض بشكل مُريع .

سوف آكلُ جسدكَ غداً
وأعرف أنكَ ستحيا فيَّ .
لكنّني لستُ مسكيناً بالقدر
الذي يجعلكَ تحيا فيَّ .
إنني مملوءٌ أنانيتي !

أنتَ فيَّ (وحدي لا أستطيع عمل شيء)
تكون حاضرًا للبؤساء .

أنا أعلم
أنكَ تستطيع تحويل ضعفي
إلى قوّتكَ الإلهيّة
وغروري
إلى تواضعكَ .

عيناكَ ،
هينئذٍ ،
تلمعان في عينيّ
قلبكَ
يخفق في قلبي
يدكَ
تلمس يدي
كلماتكَ
تداعب شفتيّ

وسأعطي الحياة
(ليس أنا ، لكن أنتَ يسوع الذي فيّ) .

هل أتجرّأ
هل أتجرّأ على الإيمان ؟

تعالَ ، يسوع ،
تعال !

لكن يا يسوع،
أنا أعلم كذلك أنك كنتَ
مصدر الوحدة،
والسلام،
والخلاص
خاصّةً عندما مُتَّ
مسمّرًا على الخشب
خشب الصليب...

وجسدكَ الذي يهبني الحياة
("من أكل جسدي
وشرب دمي
فله الحياة الأبدية")
هو جسدٌ مصلوب.

على دروب الجليل،
في أورشليم والسامرة،
رأيتَ قليلاً من الناس
لتهبهم حياةً،
ورجاءً،
وسلامًا.

لكنك على الصليب
وهبتَ الحياة
للعالم.

بتسميرك على الخشب ،
خشب الصليب ،
جذبتَ كلّ شيء نحوك .
كان ذلك ،
وهو الآن ،
الشهادة السامية لحياتك .

ومن قلبكَ المطعون بالحربة
يسيل الماء الحيّ
الذي يهب الحياة ،
والسلام ،
والخلاص .

لأتمكّن من شربه دومًا !
لأتمكّن من الاغتسال به دومًا !
ليطهّرني دومًا وإلى الأبد !

أيّها الماء الذي سالَ من جنب المسيح

أغسلني ،
طهّرني ،
أنعشني
أحيِني
كي أتمكّن بدوري من
أن أُحيي .

وهكذا ،
يا يسوعي ،
يا حبيبي ،
أنا أعلمُ أيضًا
أنّه كي نعطي الحياة
ونعطيها بكاملها ،
ينبغي أن نقترنَ
بقلبكَ المصلوب .

قلبكَ
ينبغي أن يُصلب في قلبي
وهكذا في نزاعي ،
وفي قلقي ،
أستطيع أنا أيضًا إذا أردت
جلبَ الوحدة ،
والسلام ،
والخلاص .

مثلكَ أنت ،
لن يكونَ تمامًا
بالعينين ،
واليدين ،
والكلمات ...
إعطاقي الحياة
(ليس أنا ، يسوع ، لكن أنتَ فيَّ)

بل
في هذا النزاع ،
في هذا القلق ،
عندما أكون معكَ على الصليب ،
على الصلبان اليوميّة الصغيرة ،
على الصلبان الكبيرة ،
على الصليب الكبير ،
صليبك أنت ،
مريم العذراء على قدميه .

أنا أعلمُ تماماً أنّ
حبي عندما يكون مغموراً ،
مرفوضاً
(ليس حبّي ، يسوع ، بل حبّك فيّ)
عندما يكون هذا الحب مُنكراً ،
عندما أُقاضى ،
وحتى عندما يُحكم عليّ .

أو عندما يبدو أنّ حُبّي
لا يُنعش ،
ولا يرتّق
(لا أعلم لماذا ؟)
أو عندما حبّي
لم يتحوّل كلياً في حبّك
أو بسبب خجلي

وعصبيّتي
وانزعاجي
لا أستطيع جلب السلام
الى الآخرين .

في هذا الوقت بالذات ،
يسوع ،
بعملٍ خفيّ ،
بتضحية ،
فليُحيي روحك القدّوس
العالم بأجمعه
بواسطة قلبي المصلوب
ونزاعي
وقلقي
(ليس نزاعي وقلقي بل نزاعكَ وقلقكَ
فيّ ، يسوع)
تجلب الوحدة ،
والسلام ،
والخلاص ،
الى عددٍ لا يُحصى من النّاس
رجالٌ ،
نساءٌ ،
أطفالٌ ،
بؤساءُ الكون ،
الذين يموتون من الجوع ،

الحزانى حتى الموت ،
مَن هم في صحاتٍ عقليّة ،
في أكواخٍ عفنة ،
في سجون الحزن .

هل أتجرأ على الإيمان ...

هل أتجرّأ على الايمان
بالقوّة المحيية
بقبلكَ المصلوب
الذي يستمرّ في الحبّ
بيديكَ
اللتين لا تلمسان سوى الخشب
بعينيكَ
المحتجبتين بالدماء
اللتين لا تنظران سوى إلى
مريم
بشفتيكَ
اللتين لم تستطيعا سوى الصّراخ :
« إلهي ، إلهي ،
لماذا تركتني ؟ »
واللتين تعودان أيضاً :
« هذه أمّكَ »
مريم !